تقديم مركز نهوض للدراسات والبحوث

كيف تشكَّلت صورةُ السواد في الذاكرة الإسلامية؟ وأين تتقاطع تعاليمُ النصِّ المؤسِّس التي قرَّرت كرامةَ الإنسان ومساواته مع تراكمات الاجتماع البشري وتقلُّباته التاريخية؟ وكيف نميِّز بين السواد بوصفه لونًا جسديًّا وبين السواد بوصفه حمولة ثقافية واجتماعية تغيَّرت معانيها عبر العصور؟ ثم كيف باستطاعتنا قراءة الرواياتِ التراثية والنصوص الفقهية والأدبية المتصلة بالسواد قراءةً واعيةً، لا تُحمِّل سياقاتِ الأمسِ مفاهيمَ العِرق الحديثة، ولا تنجرف في الوقت ذاته إلى التبرير أو الإدانة السابقة؟ وهل اقترن السواد بالعبودية اقترانًا أصيلًا داخل التجربة الإسلامية، أم تشكَّل هذا الارتباط في مراحل تاريخية لاحقة حين تداخلت السياسة والاقتصاد والحرب ودوائر النفوذ، وتحوَّلت تجارة الرقيق في العالم إلى نظامٍ جديدٍ ربط اللون بالمكانة والرقِّ على نحوٍ أوسع وأشدَّ رسوخًا؟

تتقدَّم تساؤلاتٌ كهذه اليوم إلى قلب الجدل المعرفي حول العِرق والهوية والعنصرية والعدالة، وتستدعي مقاربةً علميةً رصينة تُنصف النصَّ والتاريخ معًا، وتفصل بين المثال الإسلامي في مبادئه ومقاصده وبين التجربة الإنسانية التي تجري تحت سنن الاجتماع وتقلُّبات العمران. وفي هذا السياق، يأتي كتاب «الإسلام والسواد» للدكتور **جوناثان براون**، بترجمة الأستاذة **هالة الجندي**، ليقدِّم معالجةً رصينةً لهذه الإشكالات الدقيقة، ويُعيد قراءة العلاقة بين الإسلام والسواد بفحصٍ موسَّع للمصادر الكلاسيكية، وتحليلٍ للسياقات الاجتماعية والسياسية التي شكَّلت تصورات اللون في العالم الإسلامي. ويتقصَّى المؤلِّف النصوص القرآنية والحديثية والفقهية والصوفية، ويستعرض خرائط الأجناس والمدوَّنات التاريخية والأدبية، ويوازن بين المثال والممارسة، ويطرح أسئلةً نقديةً حول مراحل تشكُّل العِرق والعبودية في الحضارة الإسلامية، مستحضرًا المقارنات العالمية وإرث الإمبراطوريات والثقافات السابقة والمعاصرة.

ولا يهدف الكتاب إلى التبرئة ولا الإدانة، بل يسعى إلى بناء فهمٍ متزنٍ يستند إلى التحقيق والتفكيك والإنصاف، ويمنح القارئ قدرةً على المحاكمة الرصينة بعيدًا عن العاطفة والتحيُّز، فَيُسهِم بذلك في إثراء النقاش حول الهوية والآخر في السياق الإسلامي، ويفتح أفقًا معرفيًّا يُعيد النظر في كثير من المُسلَّمات التي تُتداول اليوم في فضاءٍ عالميٍّ تتشابك فيه السرديات، وتُختبَر فيه القيم أمام أسئلة العدالة والإنسان والذاكرة التاريخية.

ينتظم الكتاب في تسعة فصول وخاتمة: أولها **فصل تمهيدي** يبدأ فيه براون بقصة مالك بن دينار مع وليٍّ أسود أعتقه ليتتلمذ عليه، في مشهد يكشف كيف تتداخل المُثُل الدينية المساواتية مع بقايا التصورات الاجتماعية المرتبطة باللون في الوعي التاريخي، ويُقدِّم الفصل إطارًا منهجيًّا لتحليل السواد في التجربة الإسلامية دون إسقاط مفاهيم العِرق الحديثة عليها، موضحًا أن الهوية تشكَّلت أساسًا حول الدين والحرية والنَّسَب، لا اللون. ويسوق عدَّة نماذج من غرب إفريقيا والطرق الصوفية لبيان قدرة القِيم الدينية على تجاوز الاعتبارات اللونية، كما يبيِّن أن احتقار السواد -حيث وقع- قد تأثَّر بموروثات دينية وثقافية تسبق الإسلام، أو بتحولات العبودية الأطلسية والاستعمار، لا بالنص الإسلامي ذاته، لافتًا إلى وجود تراث مبكِّر في الدفاع عن السود، ومؤكدًا ضرورة قراءة النصوص في سياقها، والتمييز بين دلالات الألفاظ ومعانيها (الزنجي، والحبشي، والسودان، والأسود، والعبد...).

ومن هذه العتبة المنهجية ينتقل براون إلى **الفصل الثاني** ليقدِّم إطارًا نظريًّا لتحليل مفهومي العِرق والعِرقية، مُبينًا تعقيدهما التاريخي والمعرفي، وأن فهمهما ضرورة لازمة لمناقشة مسألة السواد. ويسوق المؤلِّف جملةً من القضايا في هذا السياق، كالفرقِ بين الرؤية البيولوجية للعرق التي سيطرت طويلًا -وعدَّت الفروق الجسدية أساسًا طبيعيًّا للتصنيف- وبين الرؤية الاجتماعية التي ترسَّخت مع تطوُّر علم الوراثة، مؤكدةً أن العِرق بناءٌ اجتماعيٌّ فاعلٌ مع غياب أساس بيولوجي حاسم له، كما يناقش المؤلِّف تطوُّر العنصرية بوصفها ظاهرة حديثة ارتبطت بنشوء الدولة القومية، والتوسُّع الاستعماري الأوروبي، وعبودية الأطلسي، والهرميات العرقية

العلمية. ومع ذلك، يبرز المؤلِّف جذورًا أقدم لتحيزاتٍ عِرقية وثقافية في الحضارات القديمة، ويقارن بين مفهومي العِرق والتمييز وبين مفاهيم قريبة كالأُمَّة والقبيلة والهوية الثقافية. ويتطرَّق الفصل أيضًا إلى تمييز العرق عن التمييز الثقافي، مُبينًا أن العرقية المعاصرة قد تتخفَّى في صورة الدفاع عن الهوية الثقافية، وأن معيار التمييز هو ثبات التصنيف وعدم قابليته للتغيير. ويتناول أمثلة مقارنة أبرزها الولايات المتحدة والبرازيل؛ لبيان اختلاف أنظمة تصنيف اللون والعِرق، وظهور مفهوم التمييز اللوني (Colourism) بوصفه ظاهرة عابرة للثقافات. ويخلص الفصل إلى أن العنصرية منظومة بنيوية تَلِدُ عدم المساواة، لا مجرَّد ميول فردية، وبذلك يهيئ القارئ لقراءة التراث الإسلامي ضمن سياقاته التاريخية، مميزًا بين التحيزات الاجتماعية القديمة والعنصرية العرقية الحديثة.

أما **الفصل الثالث** فيبسط براون فيه القولَ في مشكلة السواد من منظورٍ نظريٍّ مُوسَّع، مُبينًا أن السواد ليس مجرَّد توصيفٍ لهيئةٍ جسدية، بل هو مفهومٌ ذو طبقاتٍ متشابكة؛ فهو صورةٌ وهيئةٌ، ومجازٌ لغويٌّ وأخلاقيٌّ، وموقعٌ سياسيٌّ، وربما هو حالةُ إقصاءٍ وجوديٍّ كما تذهب إليه أطروحات التشاؤمية الإفريقية. ويتتبع المؤلِّف تطوُّر تمثُّلات السواد من تصوراتٍ قديمةٍ متنوعةٍ إلى هيمنة معيارية البياض في العصر الحديث واقترانها بمنظومة العبودية الأطلسية، كما يعرض تجارب «السواد السياسي» في سياقات التحرُّر من الاستعمار، وبيَّن حدودها أمام التذرُّر الداخلي وتفاوت الشروط التاريخية. ويؤكِّد في الختام ضرورة الحذر من تعميم التجربة الأمريكية على أنها النموذج المهيمن، تمهيدًا لقراءة السواد في التراث الإسلامي في ضوء شروطه التاريخية وحقائقه الخاصَّة، بعيدًا عن إسقاطات التصنيفات العرقية الحديثة ومقولاتها الجاهزة، وهي الفكرة التي لا يفتأ براون تكرارها وتأكيدها كلما سنح له ذلك.

ويفنِّد المؤلِّف في **الفصل الرابع** السردية الغربية التي ترُدُّ احتقار السواد إلى «عبودية عربية إسلامية»، ويكشف جذورها الأيديولوجية في اليمين الغربي والمركزية الإفريقية واللوبيات الداعمة لإسرائيل. ويردُّ بدراسات تاريخية تُظهر

تعقُّد تاريخ العبودية وتعدُّد فاعليها، محذرًا من القراءة الانتقائية التي تحوِّل الإسلام والعرب إلى «الآخر الأبدي» المذنب في التاريخ كله. ثم يبيِّن في **الفصل الخامس** أن احتقار السواد في الجزيرة العربية لم يكن عنصريةً عِرقيةً بالمعنى الحديث، بل ارتبط غالبًا بفكرة الأجنبي المُستضعَف في مجتمع قَبَلي، لا بلون البشرة لذاته، مع شواهد على تقدُّم أصحاب البشرة الداكنة في الصدر الأول للإسلام. ثم يوضِّح كيف تسلَّل الربط بين السواد والعبودية لاحقًا بتأثير أنماط العبودية الإمبراطورية والتصورات المناخية والمرويات الموروثة، من دون أن يتحوَّل ذلك إلى نسقٍ ديني مؤسس في الإسلام.

كما يناقش في **الفصل السادس** مسألة السواد في القرآن والسُّنة، مبينًا أن معظم النصوص التي يُستشهد بها للطعن في الإسلام إما موضوعة وإما مؤوَّلة مجازًا ولم تُفهَم منها قديمًا أيَّةُ دلالة عنصرية. ويوضِّح الفصل أن صور السواد والبياض في القرآن رموز أخلاقية وأخروية لا علاقة لها بالهيئة الإفريقية، وأن العلماء تعاملوا معها ضمن سياقها البلاغي لا العِرقي، كما يتتبع الفصل حديث «رأس الزبيبة» وكيف قُرئ عبر القرون، مبرزًا ضرورة فهم النص في سياقه التاريخي والثقافي، لا بمعايير العدل العرقي الحديثة. أما **الفصل السابع** فيناقش تداخل رمزية السواد والبياض في التراث الصوفي وكتابات الشمائل النبوية، في حين يتناول **الفصل الثامن** حضور اللون في مباحث الكفاية والزواج عند المالكية، مُبينًا أن بعض فقهاء شمال إفريقيا عدُّوا السواد قرينةً على دناءة اجتماعية تُراعى في اختيار الأزواج استنادًا إلى الأعراف السائدة، لا إلى تأسيس شرعيّ نصيّ. ويعرض الفصل مواقف بعض الفقهاء الذين أدخلوا اعتبار اللون ضمن منظومة العرف في الكفاية، مقابل معارضة واضحة من فقهاء كبار شدَّدوا على أن معيار الشرف في الإسلام هو التقوى، وأن العرف لا يصادم الأصول القطعية. كما يبرز الفصل الطابع التاريخي والسياقي لهذه الآراء، وتباينها باختلاف البيئات، إذ لم يجد هذا التصور حضورًا مماثلًا في غرب إفريقيا، حيث يُمثِّل السواد الهيئة الغالبة، مما يؤكِّد أن هذه الأحكام تعكس بُنى اجتماعية مرحلية لا بناءً فقهيًّا معياريًّا ثابتًا. ولا يبعد **الفصل التاسع** عن سابقه، إذ يحلِّل جدل

المساواة والهرمية في الفقه الإسلامي، مُبينًا كيف أثَّرت الأعراف في أحكام الكفاية والزواج، مع تأسيس النصوص لقيمة التقوى، ويبرز تفاعل العلماء بين واقعية اجتماعية مقيدة وقدرات إصلاحية متفاوتة، مع لحظات إحيائية أعادت الاعتبار إلى المساواة القرآنية.

ثم **يختم** براون كتابَهُ بنقاشٍ فلسفيٍّ وأخلاقيٍّ حول العرق والجاذبية والاختيار الحميمي، مستعرضًا جدلًا معاصرًا بين الرؤية الليبرالية التي تفترض حرية الفرد في تفضيلاته الخاصة، وبين مقاربات نقدية ترى أن الرغبة نفسها تُنتج ويُعاد تشكيلُها داخل بُنى القوة التاريخية للعِرق والاستعمار والرأسمالية الجمالية. ويناقش أطروحات تدعو إلى مراجعة التفضيلات الجنسية والنظر في أثرها البنيوي في إدامة التمييز ضد السود، أمام أطروحات أُخرى تتخوَّف من «الهندسة الأخلاقية للرغبات». ويستعير المؤلِّف من التجربة النبوية في كَسْر العصبيات القَبَلية بِزيجات نموذجية، ليبيِّن أن تحويل الحسّ الاجتماعيّ تجاه السواد لا يقوم بالقسر القانوني، بل بالقدوة وتعديل البيئة الاجتماعية وتوسيع دوائر الاختلاط الإنساني. ويخلص إلى أن الجاذبية ليست معطًى بريئًا ولا قدرًا ثابتًا، وأن تجاوز إرث التفوُّق الأبيض يتطلب عملًا تربويًّا وثقافيًّا يشارك فيه الأفراد والمؤسسات، على نحو يذكِّر بمنهج الإصلاح الإسلامي التاريخي الذي جمع بين الواقعية الاجتماعية والمثالية الأخلاقية الساعية إلى تحطيم أصنام اللون والهوية.

تأتي ترجمة هذا الكتاب في سياق مشروع **مركز نهوض للدراسات والبحوث** لتعميق النقاشات العلمية حول القضايا الجدلية في الفكر الإسلامي، امتدادًا لاهتمام المركز بالقراءات النقدية الرصينة التي توازن بين النص والسياق التاريخي، وتفتح مسارات بحثية جديدة بعيدًا عن التبسيط أو الاتهام الأيديولوجي. وقد سبق للمركز أن قدَّم للقارئ العربي أحد أعمال جوناثان براون بعنوان «**مدخل إلى علم الحديث**» ضمن سلسلة «**مداخل منهجية في العلوم الإسلامية**»، وهي سلسلة تطمح إلى سَدِّ ثغرة مهمَّة وتلبية حاجة مُلِحَّة إلى هذا النوع من المداخل المنهجية الحديثة.

وبعـدُ، فـإن **مركـز نهـوض للدراسـات والبحـوث** إذ يقدِّم هـذا الكتابَ إلـى قُرَّاء العربيـة، ليحدوه الأملُ في أن يُسـهِم فـي تعميق الفهم المعاصر للتراث الإسـلامي، وإثـراء مـا يدور حولـه من ألوان النقـاش العلمي، ووصـل ما انقطع بيـن ماضي هذا التراث وحاضره.